K-5

امعان
في اقسام القرآن

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

تأليف
المعلّم عبد الحميد الفراهي
صاحب تفسير (نظام القرآن)
ورئيس لجنة المديرين لدار المصنفين بمدينة اعظم گره بالهند

طبع على نفقة جمعية
دار المصنفين
المطبعة السلفية - ومكتبتها
Kahire 1349

القاهرة

١٣٤٩

﴿ حقوق الطبع محفوظة ﴾

(١) سبحان الذى أنطق كلَّ شىء بأنه صنع يده ، وغذى رفده . سبح الشمس لكبريائه ومجده ، ويسجد له القمر بجبينه وخده ، يتنهد له البر بغوره ونجده ، ويحفد اليه البحر بجزره ومده . كما قال تعالى فى كتابه ﴿ تسبِّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وانْ من شىء إلا يسبح بحمده ﴾ . ونصلى على محمد رسوله المختار وعبده ، وعلى آله وصحبه المعتصمين بحبله وعهده . والتابعين لهم على سواء السبيل وقصده * أما بعد فهذا كتاب فى بيان أقسام القرآن ، وموجز من المقدمة التى جعلتها لذكر الأمور الكلية التى أحتاج الى ايرادها فى كتاب (نظام القرآن و تأويل الفرقان بالفرقان) لتغنى عن التكرار الذى لاطائل تحته . وقد جاء القسم فى كتاب الله تعالى كثيراً واشتبه على الناس معناه وحكمته والبحث عنه فى كل موضع لايليق بكتابنا الذى بنى على الايجاز . فأردت أن أتكلم عليه من جهة كلية فى جزء مختصر . ولم أطلع على كتاب من القدماء فى هذا الباب غير كتاب التبيان للعلامة ابن القيم أو ما ذكر فى التفسير الكبير للعلامة الرازى ومن أئمه رحمهم الله وسنورد منهما فى خلال فصول كتابنا هذا ما يقتضيه سياق الكلام ، والله الهادى الى سبيل السلام

ذكر الشبهات الثلاث

على أقسام القرآن

(٢) لما كان المقصد الأعظم من هذا البحث ازالة الشبهات أردت أن أذكرها أولا ليكون الناظر من قبل على بصيرة بمساق الكلام فيتضح له شكل نظامه وغرض سهامه . فاعلم أن الشبهة على أقسام القرآن من وجوه :

(ا) القَسَم نفسه لا يليق بجلالة ربنا ، فان الذى يحلف على قوله يهين نفسه ويضعها موضع من لامعوّل على حديثه ، وقد جاء فى القرآن ﴿ولا تطع كل حلاّف مَهين﴾ فجعل الحلف من الخلال المذمومة ، ونهى المسيح الحواريين عن الحلف مطلقاً فقال لهم « ليكن قولكم نعم نعم أو لا لا ولا تحلفوا »

(ب) القسم فى القرآن جاء على أمور مهمة كالمعاد والتوحيد والرسالة ولا فائدة فيها للقسم الا للمنكر بها فانه يطلب الدليل والبرهان والقسم ليس فى شىء منه ولا للمؤمن فانه قد آمن بها

(ح) القسم يكون بالذى عظم وجلّ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « من كان حالفاً فليحلف بالله اوليصمت » فنهى عن القسم بغير الله فكيف يليق بجلالة ربنا أن يقسم بالمخلوق لا سيما باشياء مثل التين والزيتون

فهذه ثلاث شبهات . ونذكر أولا ما أجاب به الرازى وغيره من

المتقدمين ، وندلك على مافيه من الضعف لنحذرك عن التمسك بالعرى الواهنة فانه أكبر ضرراً فى الدين وأبسط لألسنة المعاندين ومع ذلك ندعو أن يجازيهم الله بما اجتهدوا فى الذب عن بيضة الحق وذماره كما أدعو أن يجعلنى من حزب الحق وأنصاره

طريق الامام الرازى

فى الجواب عن هذه الشبهات

(٣) قد ذكر الامام الرازى الشبهة الثانية وأجاب عنها فى تفسير سورة والصّٰفّٰت فقال « والجواب من وجوه الاول انه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيدا لاسيما والقرآن انزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (فيما ذكر من نزول القرآن بلغة العرب وكون اليمين طريقة مألوفة عندهم أيضاً جواب للشبهة الاولى) . وحاصل هذا الوجه ان القسم انما هو مسبوق بالدلائل . فالمعوّل عليها . واما ايراد القسم فهو للتأكيد المحض كما هو عادة العرب (والظاهر ان هذا الجواب يناقضه القرآن فانك فى أوائل الوحى ترى القسم أكثر مما تراه بعد استيفاء الدلائل) . الوجه الثانى فى الجواب انه تعالى لما اقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى « ان الهكم لواحد » ذكر عقيبه ماهو كالدليل اليقينى فى كون الاله واحدا وهو قوله تعالى « رب السموات

والارض وما بينهما ورب المشارق » وذلك لانه تعالى بين فى قوله « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » أن انتظام السموات والارض يدل على ان الاله واحد فهاهنا لما قال « ان الهكم لواحد » اردفه بقوله « رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق » كأنه قيل قد بينا ان النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الاله واحدا فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (وحاصل هذا الجواب ان القسم هاهنا مردف بقول فيه الحجة ، فالاحتجاج بها . واما القسم فلمحض التنبيه وهذا الجواب يشبه الجواب الاول وكلاهما ساكت عن بيان حكمة هذه الصور المتنوعة للقسم فأى فائدة للعدول عن القسم بالله الى القسم بهذه الاشياء) . الوجه الثالث فى الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام فى قولهم بانها آلهة فكانه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة الى حيث يكفى فى ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم » . هذا الجواب سخيف جدا كأنه بعد ما اعترف فى الوجهين الاولين بان القسم لا حجة فيه قال ان مذهب الخصم كان جديرا بان يجاب عنه بما ليس من الحجة فى شىء . ثم ذكر من حكمة القسم فى تفسير سورة الذّاريات ما يشبه بالجواب عن الشبهات فقال « قد ذكرنا الحكمة فى القسم وهى من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة فى سورة والصّافّات ونعيدها ههنا وفيها وجوه : الأول أن الكفار كانوا فى بعض الأوقات يعترفون بكون النبى غالبا فى اقامة الدليل ، وكانوا ينسبونه الى المجادلة والى أنه عارف فى نفسه بفساد ما يقوله وانه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال كما أن بعض الناس اذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له

حجة يقول انه غلبنى بعلمه بطريق الجدل وعجزى عن ذلك وهو فى نفسه يعلم أن الحق بيدى فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول ان الأمر كما أقول ولا أجادلك بالباطل وذلك لأنه لو سلك طريقا آخر من ذكر دليل آخر فاذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال فى الأول أن ذلك تقرير بقوة الجدل فلا يبقى الا السكوت أو التمسك بالايمان وترك اقامة البرهان ، وفى هذا الجواب خلط بين الغث والسمين ونقض لما قال فى تفسير سورة والصّافّات فانه رحمه الله أجاب هناك فى الوجه الثانى بأن القسم يتبعه الدليل وانما كان القسم لأجل التأكيد ، والأمر كذلك فان القرآن لا يسكت على القسم فلو قال ان الدليل المحقق ربما لا ينجع فى الخصم اذا كان قليل المعرفة بالاستدلال وقليل الاعتماد على نظره أو متهما للمتكلم بخلابة بيانه فيحسن فى هذه الحالات شوب الحجة باليمين فلو قال هكذا لكان أقرب . الثانى : هو أن العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ثم ان النبى ﷺ أكثر من الايمان بكل شريف ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتا وكان يحصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذبا والا لأصابه شؤم الايمان ولناله المكروه فى الأزمان وفى هذا الجوب كأنه أشار الى سبب كون اليمين طريقة مألوفة عند العرب كما مر ، وقد أصاب فى ذلك لو لم يزد عليه ما قال من أن النبى ﷺ أكثرَ من الايمان بكل شريف كأنه بين سبب خوفهم وأراد أنهم اذا أقسموا بكل شريف خافوا سخطه ان كذبوا فى يمينهم به ، وضعف هذا القول ظاهر فان أقسام القرآن (١) ربما يكون بما ليس فيه شرف

(٢) والقرآن يهدى الى أن لانخاف الا الله (٣) وأى شوم يخاف من التين والزيتون (٤) ثم النبى ﷺ كان يبلغ القرآن من الله فالقسم منه تعالى وهو لا يخاف أحداً . فلو اقتصر على الجزء الأول من جوابه وقال ان العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتخاف مغبتها وتعتقد أن الرجل لا يحلف كذبا فاذا حلف أحدٌ أصغوا اليه كان أقرب الى ما يجاب به عن الشبهة الاولى والثانية جوابا ضعيفاً . الثالث : أن الايمان التى حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمه وحق نعمك الكثيرة انى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هذه الأشياء كلها (أى التى أقسم بها فى أول الذّٰريٰت) دليل على قدرة الله تعالى على الاعادة فان قيل فلم أخرجها مخرج الأيمان ؟ نقول لأن الانسان اذا شرع فى أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى اليه اكثر من أن يصغى اليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر ، فبدأ بالحلف وأدرج الدليل فى صورة اليمين . هذا الجواب يكفى لدفع الشبهة الثانية ولكن يلزم على القائل به أن يبين وجه الاستدلال بالمقسم به على المقسم عليه وهذا مع كونه ظاهراً فى بعض المواضع كثيراً ما يحتاج الى امعان شديد ولعله لهذا السبب لم يعتمد عليه إلا فى هذه سورة الذرّٰيٰت وفى بعض أخر وأما فى البواقى فله طريقان : الأول أنه ينكر وجود القسم اذا أمكنه الانكار فراراً عن شبهات واردة على القسم كما قال فى تفسير سورة القيامة فى ذكر لا التى تبتدئ بها السورة « الاحتمال الثانى أن لا هنا لنفى القسم

كأنه قال لا أقسم بذلك اليوم وتلك النفس ولكنى أسألك غير مقسم أنحسب انا لا نجمع عظامك اذا تفرقت بالموت فان كنت تحسب ذلك فاعلم انا قادرون على أن نفعل ذلك . وهذا القول اختيار أبى مسلم وهو الأصح » هذا القول غير مختار عند العارف بكلام العرب فانه لو كان المراد كما فهم لكان وجه القول نفى مجرد القسم لاذكر الأشياء الخاصة كالنفس اللوامة والخنّس الجوارى الكنّس وغيرها ، ثم هذا مخالف لأسلوب كلامهم فانهم يستعملون كلة لا قبل القسم منقطعة كما بينا فى تفسير سورة القيٰمة وهذا هو مختار الزمخشرى والطريق الثانى : هو القول بأن القسم للتأكيد والتنبيه على شرافة المقسم به قال فى تفسير سورة الذّٰريٰت وقد عرفت أن المقصود من القسم التنبيه على جلالة المقسم به . وعلى هذا الأصل قال فى تفسير سورة التين « اعلم أن الاشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الامور الشريفة فكيف يليق أن يقسم الله تعالى بهما فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان » ثم ذكر فوائدها ان كان المراد منهما هذه الاثمار ، وذكر شرافتهما ان كان المراد منهما مسجدين أو بلدين . وقد علمت أن التمسك بهذا الجواب مع كونه بادى الخلل لا يزيل الشبهة الثالثة فان هذه الأشياء التى أقسم بها فى القرآن ومنها : العاديات ضبحا ، والجوارى الكنس ، والليل ، والصبح ، والتين والزيتون ؛ ليست من الجلالة بمكان يقسم بها خالقها وربها ان كان القسم لأجل شرافتها